الدرر المقدسية
منبر فلسطين للعلم والدعوة والتربية

مجلة الدرر المقدسية

مجلة دعوية تربوية، تصدر شهرياً عن مؤسسة الدرر المقدسية | العدد (34) - ديسمبر كانون أول 2024م

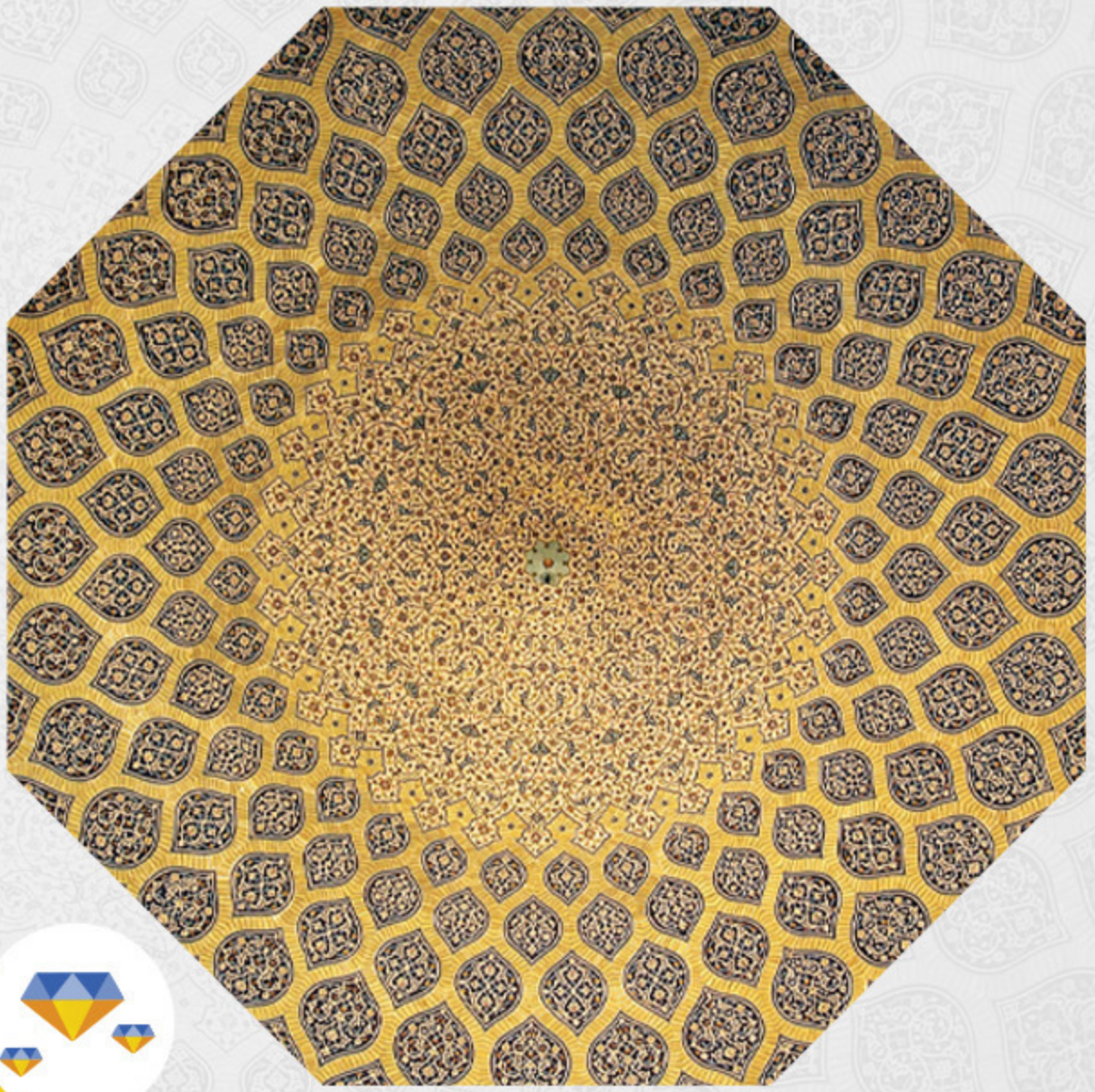

في ظلال آيات من سورة الإسراء
بر الوالدين
د. إبراهيم فضل الشيخ

كيف يحسُن حكم الفقيه على الأشياء؟!
أ. خبّاب الحمد

مجالس النّبي ﷺ المقدسية
د. زهران عمر زهران

وعـــد الله الحق
د. مروان بحيص

لنحمل معهم أوجاعهم
أ. فادية أبو عيشة

الفهرس

الفهـــــرس.....01

الافتتاحيـــة 02

كيف يحسُن حكم الفقيه على الأشياء؟!، أ. خبَّاب بن مروان الحمد.....03

لنحمل معهم أوجاعهم، أ. فادية أبو عيشة.....07

حديث النبي ﷺ: (أول هذا الأمر نبوة ورحمة، ...)، قراءة استراتيجية 08

مجالس النّبي ﷺ المقدسية، د. زهران عمر زهران.....10

فقه المقاومة الشعبية بين جهاد الطلب وجهاد الدفع، د. يونس أكرم الجعبري.....11

وعد الله الحق، د. مروان بحيص 12

في ظلال آيات من سورة الإسراء (بر الوالدين)، د. إبراهيم فضل الشيخ.....13

مفهوم القوامة بين الأحكام الشرعية والقوانين الوضعية، د. منال قزاز.....14

قصيدة بعنوان (أخي)، أ. حمدان مصلح.....15

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لانبي بعده،

الإخوة والأخوات الكرام ... أجمل التحيات، وأطيبها نطيرها لكم من مجلة "الدرر المقدسية"، في هذا العدد الجديد من هذه المجلة، التي سارت سنواتها بحفظ الله ورعايته، ومن ثم بجهودكم وآرائكم القيمة، وهي اليوم ما زالت ترقى نحو العلا بما تقدمه من فكر سليم، وعقيدة صحيحة، ورؤى واضحة، لتصل هي والقراء الأعزاء نحو العلا، والمجد الرفيع، لتكون عباراتها وكلماتها شهدا مصفى، صُنِع على أيدي أطيب الزهرات، وأطهرها، وكذلك هم كُتاب هذا العدد كانوا من خيرة علمائنا، فجادت أقلامهم بعبارات وأفكار تحمل بين سطورها، وفي ثنايا حروفها فكرا وسطيا مدافعا عن الحق، وداعيا إلى الخير، ليكونوا مفاتيح للخير، مغاليق للشر.

الإخوة والأخوات الأعزاء ... منذ أكثر من عام ونحن في فلسطين نواجه الموت أصنافا وألوانا على يد مجرم لا يرحم، وعنوان هذه المرحلة في حياة شعبنا هو الصبر والثبات، والإيمان المطلق بوعد الله والنصر المبين، فقدم شعبنا الغالي والنفيس في سبيل ذلك، منطلقا من إيمانه بالله تعالى، وما ورد في كتاب ربه، وسنة نبيه من آيات وأحاديث تثبت المؤمنين، وتدحر المنافقين والكافرين، لذا علينا أن نكون واعين لما يحيط بنا من أهوال ومؤامرات، تستهدف نساءنا قبل شبابنا، فهم يريدون من نسائنا الخروج عن عاداتنا وتعاليم ديننا، وقد صموا آذانهم، وعموا أبصارهم عما يحصل لهن في غزة وفي فلسطين، فما يريدون لهن إلا الخروج عن الحق، وأن يكن جندا من جنود إبليس، ويريدون تدمير أسرنا وبيوتنا التي بنيت على المحبة، وكل رغباتهم أن يترك الابن أباه، ويعق أمه، لذا لا بد لنا من فقه للمرحلة القادمة، وأن نُحسن الاختيار، مقتدين بالنبي عليه السلام ومجالسه المقدسة المباركة، وأن نعيد تحديد أولوياتنا نحو إخواننا المنكوبين، والمشردين في قطاع غزة، فلنكن لهم عونا وسندنا، فهم عنوان صمودنا وآخر قلاعنا... وهم آخر النور الذي يسطع في ليل أمة تخلت عن مبادئها، وتعاليم دينها، لذا لا مخرج لنا إلا إذا عدنا لمصدر عزتنا، وقوتنا وهو القرآن الكريم وسنة نبيه عليه السلام، ومقتدين بقوله عليه السلام: "تركتُ فيكم أَمْرَيْنِ لن تَضِلُّوا ما تَمَسَّكْتُمْ بهما : كتابَ اللهِ وسُنَّةَ عليه السلام".

كيف يحسُن
حكم الفقيه على الأشياء؟!

أ. خبّاب بن مروان الحمد
فقيه وداعية إسلامي

لا يسع المختص بالعلوم الشرعية أن ينفكّ عن واقعه طالما أراد أن يتّصل بعلوم الشريعة؛ إذ أنّ الشريعة الإسلاميّة بطبعها شريعة حيويّة حركيّة؛ لا تقبل الضمور أو الانكماش؛ فضلاً عن الانزواء؛ خلافاً لما كان عند الرهبان والقساوسة والبطارقة النصارى الذين يعتزلون واقعهم في صوامعهم وكنائسهم للتعبدّ؛ الذي جاوزوا فيه حدّهم كذلك فآل إلى الخزعبلات والبدع المُحدثة والرهبانيّة التي ليس للدين صلّة فيها؛ والكهنوتيّة التي تؤدي طقوساً خُرافيّة ما أنزل الله بها من سلطان.

إنّ روح العلوم الشرعية؛ وروحُ روحها وهما القرآن والسنّة ما كانا يتنزّلا إلاّ في واقع الحياة؛ حتّى أنّ كفار قريش قالوا: ولِمَ لم يتنزّل القرآن جملة واحدة؟

فأنزل الله تعالى : { وقالوا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتّلناه ترتيلاً * ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً} فكانت أفانين القرآن تتنزّل طبقاً لإصلاح الحوادث والوقائع والنوازل المستجدة في الواقع؛ فضلاً عن شرح طبائع الأشياء والحديث عن الأشخاص وإصلاح الأفكار؛ حتّى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يتساءل كفار قريش عن سر حراكه في أسواقهم، ويقوم معهم بالاجتماع على موائد الطعام والشراب : {وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أُنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً} ويؤكد على هذا مرّة أخرى فيتحدث عن حال المُرسلين سابقاً وأنّ رسول الله لا يختلف عنهم فيقول: {وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ إنّهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق}.

إنّ دور حملة الشريعة مخالطة الواقع مخالطة عميقة؛ ليستخرج منه أفضل الطُرق في معالجته لشؤون الحياة؛ وفهم الطبائع والوقائع والمواقع؛ ولا علمَ صدق بدون فهم حق؛ ومالم يكن العالم بالشرع عالماً بكلّيات العلوم البشرية والإنسية؛ التي تتمحور حولها كثير من التطبيقات والإجراءات التدبيريّة والبشريّة؛ وإلا فلن يجد العالم التربة الخصبة؛ والاستنباط الصحيح من القرآن والسنّة لإصلاح واقع الناس.

لا غرو بعدئذٍ أن نرى عدداً من علماء الإسلام ومفكريه يحثُّون طلبة الشريعة على فهم ودراسة علم الاجتماع وما يلتصق به من تفرعات نفسية أو سياسية أو اقتصادية أو تربوية، وغيرها؛ كي يكون لديهم معرفة بعلوم الدين والدنيا؛ كما أوضحه الأستاذ والشاعر الهندي المشرقي محمد إقبال؛ فيما يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: "أنّ من أسباب ضعف الباحث الفقهي عدم عنايته بعلوم الاجتماع مع حاجة الأمة له"(1)

فالخبرة والمهارة والمعرفة بشؤون المجتمع مما يجعل المرء مقتدراً على فهمه على النحو الصحيح؛ ومن لم يكن أهلاً لذلك لم يستطع أن يؤدي رسالته؛ وقد جعل الإمام ابن تيمية بعض مسائل القتال والحرب من هذا القبيل فقال ابن تيمية: "والواجب أن يعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا فأما أهل الدنيا الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين فلا يؤخذ برأيهم ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا"(2).

من هنا نجد إشادة العلماء بكتاب المقدمة لابن خلدون وما فيها من خِبرات وتلمسات لحياة الناس الاجتماعية؛ ومعرفتها وفهمها، ومثله كتاب تحصيل النشأتين وتفصيل السعادتين للراغب الأصفهاني، وإغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي، وغيرها من الكتب التي بحثت في الشأن التاريخي الاجتماعي؛ كما في تعليقات ابن كثير في البداية والنهاية على بعض الأحداث، والذهبي في تاريخ الإسلام وغيرهم من العلماء المتفحصين.

وقد ذكر العلاّمة محمد الخضر حسين أن: "العلماء المقيمين في ضواحي قرطبة، كانوا يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة، ويطالعونه بأحوال بلدهم، وقال أحد علمائهم:

وأتعبُ إن لم يُمْنَحِ الناسُ راحةً * وغيريَ إن لم يُتْعِبِ الناسَ يَتْعَبُ

وإذا قصَّ علينا التاريخ أن فريقاً من أهل العلم قضوا حياتهم في بحث المسائل العلمية البحتة، فقد قصَّ علينا أن أمة من عظمائهم كانوا ينظرون في الشؤون العامة، ويمثلون السيرة التي تكسو صاحبها جلالة، وترفع له بين الخلائق ذكراً.

كان أهل العلم يوجهون هممهم إلى الوسائل التي تقي الأمة ممن يبغونها الأذى، فهذا أبو بكر ابن العربي قاضي أشبيلية رأى ناحية من سور أشبيلية محتاجة إلى إصلاح، ولم يكن في الخزانة مال موفر يقوم بسدادها، ففرض على الناس جلود ضحاياهم، وكان ذلك في عيد الأضحى، فأحضروها، وصرفت أثمانها في إصلاح تلك الناحية المتهدمة.

وكان محمد بن عبد الله بن يحيى الليثي قاضي قرطبة كثيراً ما كان يخرج إلى الثغور، ويتصرف في إصلاح ما وهي منها، حتى مات في بعض الحصون المجاورة لطليطلة"(3).

إنّ إصلاح واقع الناس يبرز من معايشة المشكلة وبياناتها؛ فإذا بانَ عنها وانقطع عن النظر فيها؛ لم يسعفه الدليل في تعامله مع الناس بسعادة التأثير؛ أو على الأقل إفحاج حجّة النظير.

ولن يستطيع الفقيه ملء الفراغ بحُكْمِه حتّى يملأه بحكمته وحُسن تقديره للموقف وقراءته للواقع؛ لهذا قال أسيادنا من علماء المنطق: (الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره) وما لم يُحسن المرء فهم الأشياء، وإدراك حقائق الأمور، وكُنه طبائعها؛ ويتصورها كما هي عليه دون أحكام مُسبقة أو مُعلّبات فكريّة دون وكس أو شطط؛ وإلاّ فستقصر همّته الفكريّة عن تمثّلها بالذهن = فالمُكوّن الصحيح في التصور أن يراها ذهنياً ثم تتمثّل أمامه في الخارج الذهني؛ ويرى انعكاساتها وارتداداتها على الواقع والوقائع.

والمُلاحظ أنّ الحكم ليس مقتصراً على الناحيّة المعنويّة أو الفكريّة؛ بل هو متعلّق بعالم الأشياء ومثلها المحسوسات؛ وهذا كلّه يعطي للمرء التوخّي في حالة الحكم؛ وإتقان النظر والفكر حالة التصور؛ لأنّ الحكم معناه على مبناه، ومنتهاه يقوم على مبتداه.

إنّ قاعدة : "الحكم على الشيء فرع عن تصوره" قاعدة صحيحة ذكرها علماء المنطق؛ وأعملها فقهاء الإسلام في دراساتهم للواقع وإعطاء الحكم المناسب للفقه؛ فباتت قاعدة فقهية / أصولية شريفة؛ لا تقلّ مطلقاً عن قاعدة : "الحكم يدور مع علّته وجوداً وعدماً" إذ هذه القاعدة مرتبطة بعلّة يستنبطها الفقهاء من خلال دراستهم للشيء مما هو منصوص عليه أو في حكم المنصوص عليه مما يتطابق مع العلّة؛ فيما هذه القاعدة (الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره) اتصالها بالسياق الإنساني والمجتمعي والبشري أكثر من غيره؛ لأنّ صلتها ليست بجانب حُكمي فقط بل بجانب متعلق بالنظر العيني الذي يؤهّل المرء للحكم السليم؛ ولهذا فما يكون من أحكام خاطئة يكون سببها تصورات مشوّهة، أو وهميّة؛ وهذا ما يتطلّب من الفقيه الخبرة بحقائق الأشياء جيداً؛ والتأني والتثبت قبل القول الحُكمي.

وكُلّ شيء له أداته وأناته الخاصّة به؛ فالحكم على قضيّة متعّلقة بالاقتصاد؛ سيستعملُ معها الباحث كافّة الأدوات والمهارات ويستعين بالخبرات والتجارب في النظرة الشموليّة للقضيّة الاقتصاديّة التي يُريد أن يستخلص منها حُكمها الخاص بها؛ وتلك مهمّة شاقّة؛ تتطلب الصبر والرويّة في الأمور؛ حتّى يُعطي ثمرة ونتيجة حُكمة؛ تكون محمولة بأكفّ العلم ودلائل الحكم الصحيح، وتُقاس عليه كافة مباحث العلوم الإنسانية الأخرى من علوم السياسة والتخطيط والإدارة والتربية والنفس والاجتماع وغيرها.

إنّ الخِبرة بالشيء ضرورة ماسّة قبل الحكم عليه؛ وعدم الإحاطة به سيُسبب الحكم الجاهل؛ والاستعجال الموقع بالزلل، وهو نقيض الصبر؛ لهذا حين وقف موسى بن عمران مع الخضر عليه السلام؛ وطلب منه أن يُعلّمه ممّا علّمه الله؛ وكانت تعاملات الخضر مع عوالم ثلاث مختلفة:

- في البحر بخرق السُّفن لئلا يستخدمها الظالمون.
- وفي البر بتقصد القتل للغلام الكافر العاق.
- وفي المدينة بحفظ الجدار من السقوط على أنّ أهلها لم يقوموا بالضيافة.

فحينما لم يُدرك موسى عليه الصلاة والسلام أسرار ما فعله الخضر عليه السلام؛ واعترض عليه ولم يُطق أن يتحمّل رؤية شيء يُتعامل معه بخلاف ظاهره؛ بيّن له أسباب تعاملاته؛ وهي المقتضية للخبرة التي تحدث عنها سابقاً؛ وطلبها ممّن يُريد أن يتعلّم أن يحسن التعامل معها بالصبر؛ لتكوّن الخبرة.

وفي سورة الكهف إشارة أخرى لذلك مع قصّة ذي القرنين؛ فعلى الرُّغم من اهتمامه بالأسباب؛ وإتباعه السبب، وطلبه الإعانة من قومه؛ واهتمامه بالقوّة ليحسن العمل؛ وطلبه أقوى العوامل المعينة على حفظ الحدود وسد السدود من الحديد؛ واستخدام النار لإلحامه؛ هذا كلّه ومع مكانة خبرته؛ إلّا أنّها تحت خبرة الله فقد قال تعالى: {كذلك وقد أحطنا بما لديه خُبراً}.

هذا كلّه يعطي الباحث في علوم الشريعة ضرورة دقّة التصورات على وجهها؛ والصبر على تعاطيها؛ والإفادة من أهل الخبرة والتجربة؛ وهو ما يؤدي إلى زرع الأمل والأمن في الواقع؛ وقلة الهوى والبغي.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -:" فهذه المسائل إذا تصورها الناس على وجهها تصورا تاما ظهر لهم الصواب وقلت الأهواء والعصبيات، وعرفوا موارد النزاع"(4).

أمّا إذا كثُرت التصورات الخاطئة؛ أدّى هذا للتضييق على الناس في أمور معيشتهم؛ والتشدد الذي يجعل الحكم المباح في أصله حراماً لسوء التصور؛ أو التميُّع والتساهل في قلب الحكم من كونه حراماً إلى مباح؛ لهذا أكّد علماء الإسلام على ضرورة التصور في الفتوى؛ وخاصّة أنّ الفتيا ليست مجرّد سؤال من كتاب فقهي؛ أو إجابة على متن فقهي كتبه صاحبه فحسب؛ بل له دور في المخالطة والمعايشة لنفسيات الناس واجتماعياتهم وبيئتهم؛ مما يستعين به الفقيه مع علمه الأصل بالأحكام التكليفيّة إلى استصحاب الأحكام الوضعية أو ما يُسمّى عوارض الأهليّة؛ هذا فضلاً عن التصور الواقعي للحالة المعينة التي حصلت فيها المسألة؛ فمن أساء التصور أساء الفهم ومن أساء الفهم أساء الحكم؛ لهذا قال الشيخ الحجوي الثعالبي: "أكثرُ أغلاط الفتاوى من التصور" (5).

لقد كان علماء الأصول يُركّزون على قضايا في ضرورة فهم طالب الشريعة لها؛ قبل الحكم عليها وذلك بخُماسيّة نظريّة؛ ذكرها الإمام أبو حامد الغزالي فقال: فعلى كل ناظر في المسائل وظائف خمس:

أولها: وضع صورة المسألة وفهمها.
والثانية: طلب الاحتمالات فيها واستقصاؤها.
والثالثة: حصر ما ينقدح من جملة تلك الاحتمالات، وتقليلها ما أمكن.
والرابعة: طلب أدلة الاحتمالات.
والخامسة: طلب الترجيح في تلك الأدلة (5).

وإنّ المتتبع لهذه الكلمات التي ذكرها الإمام الغزالي وهي: صورة المسألة؛ فهمها، طلب الاحتمالات، استقصاء الاحتمالات، الأدلة، الترجيح؛ فهي كلمات ستبعث في نفس الفقيه أنّ التكييف الفقهي للمسألة لابدّ أن يمرّ بمراحل مختلفة ترتيبيّة؛ وأنّ الحكم ليس اعتباطاً أو أنّه حالة ارتجاليّة، أو تؤخذ فيه الأمور بشيء من الأصول العامة، ويجري الحكم فيها بطريقة طوباويّة لا تُحكم الأمر وتستقرئ حدوده وتستقصي احتمالاته وتلغي ضعيفها.

ولقد قعّد العلماء في كتبهم؛ وخاصّة علماء الفقه وأصوله أنّ معرفة الأحكام الفقهيّة متفرّع عن معرفة صُورة المسألة وأشكالها والتفريق بين دقائقها؛ فالفقيه يُمكن اعتباره قائلاً بحكم الشرع بعد استتمام تصوُّره للمسألة الواقعية، كما وأنّ المتخصّص فقهياً عليه أن يستفرغ الفقيه وسعه لدرك حقيقة المناط ومعرفته ومن ثمّ تحقيقه وإسقاط حكمه في أرض الواقع؛ وكثيراً ما يحصل الخلل والعجل في فهم بعض المسائل ولم يستوفِ الناظر فقيهاً فصل حُكمها؛ وحين تكلّم الإمام ابن تيمية عن جواز بيع المغيّبات في الأرض، وأنّ الغرر فيه مغتفر، وردّ على من منعه من الفقهاء للغرر؛ قال: قد يكون أهل الخبرة به أعلم من الفقهاء الذين لم يُباشروا ذلك.

جاء في مجموع الفتاوى لابن تيمية قوله: "وكون المبيع معلوما أو غير معلوم لا يؤخذ عن الفقهاء بخصوصهم؛ بل يؤخذ عن أهل الخبرة بذلك الشيء؛ وإنما المأخوذ عنهم ما انفردوا به من معرفة الأحكام بأدلتها. وقد قال الله : {الذين يؤمنون بالغيب } والإيمان بالشيء مشروط بقيام دليل يدل عليه، فعلم أن الأمور الغائبة عن المشاهدة قد تعلم بما يدل عليها فإذا قال أهل الخبرة : إنهم يعلمون ذلك كان المرجع إليهم في ذلك دون من لم يشاركهم في ذلك وإن كان أعلم بالدين منهم. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لهم في تأبير النخل: {أنتم أعلم بدنياكم . فما كان من أمر دينكم فإلي} . ثم يترتب الحكم الشرعي على ما تعلمه أهل الخبرة"(7).

وقال ابن القيم :"وإن قيل:"كلما أردت بيع شيء منه فاقلعه"كان فيه من الحرج والعسر ما هو معلوم، وإن قيل:"اتركه في الأرض حتى يفسد، ولا تبعه فيها" فهذا لا تأتي به شريعة، وبالجملة فالمفتون بهذا القول لو بلوا بذلك في حقولهم أو ما هو وقف عليهم، ونحو ذلك لم يمكنهم إلا بيعه في الأرض، ولا بد، أو إتلافه وعدم الانتفاع به، وقول القائل:"إن هذا غرر ومجهول" فهذا ليس حظ الفقيه، ولا هو من شأنه، وإنما هذا من شأن أهل الخبرة بذلك، فإن عدوه قمارا أو غررا فهم أعلم بذلك، وإنما حظ الفقيه بحل ذلك أن الله أباحه وبحريم ذلك أن الله حرمه، وقال الله وقال رسوله، وقال الصحابة.

وأما أن يرى هذا خطرا وقمارا أو غررا فليس من شأنه بل أربابه أخبر بهذا منه، والمرجع إليهم فيه، كما يرجع إليهم في كون هذا الوصف عيبا أم لا، وكون هذا البيع مربحا أم لا، وكون هذه السلعة نافقة في وقت كذا وبلد كذا، ونحو ذلك من الأوصاف الحسية، والأمور العرفية، فالفقهاء بالنسبة إليهم فيها مثلهم بالنسبة إلى ما في الأحكام الشرعية"(8)، فالاختلاط بأعيان التجارات وأشكالها وألوانها؛ يُعطي لدى الباحث الفقيه معرفة منضبطة بما يُمارسه السوق المالي من بياعات وتجارات.

وفي المُقابل فإنّ كثيراً من التُّجار يقومون بالفعل التجاري البحت؛ وينهمكون في السوق المالية؛ ومتابعة الأرباح والحذر من الخسائر، والتعرض لكل صفقة يجنون من خلفها مالاً؛ فيندر منهم من يتفقه في أصول دينه ويعرف الحلال والحرام في أساليبه التجارية؛ أو يُحاول معرفة الفروقات بين العقود الفاسدة والصحيحة، ولا يُقايس الشيء بعقله؛ حيث يفتقد المقياس الشرعي والمعيار الاقتصادي الإسلامي الذي يضبط تجارات الناس؛ فقد لا ينتبه لذلك التاجر الذي "يمضي عمره في جمع المال كيف اتفق، ففكره مصروف إلى ذلك عن النظر إلى صحّة العقود"(9) كما يقول الإمام ابن مفلح .

هذا يعني أنّ الطرف المتخصص في العلوم الشرعي؛ والطرف الآخر المتخصص في القضايا المالية والاقتصادية يحتاج بعضهما لبعض في فهم مكّملات ما تُحكمه الشريعة؛ لتتكون المدارك الصحيحة؛ ويحسن القيام بها في أرض الواقع.

تلك لمحة موجزة عن ضرورة التأني والتثبت والتدقيق في معرفة صورة الشيء قبل الحكم عليه؛ فكيف إذا كان ذلك في قضايا الشرعة الإسلامية؟!

الهوامش:

1. أليس الصبح بقريب، للطاهر بن عاشور، ص26
2. الفتاوى الكبرى، لا بن تيمية : (537/5).
3. بتصرف واختصار عن مقال بعنوان: العلماء والإصلاح، العلماء والإصلاح، للشيخ محمد الخضر حسين، نُشر ضمن (موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين) (116/5)
4. مجموع فتاوى ابن تيمية : (12 / 103).
5. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي للحجوي الثعالبي : (571/2).
6. حقيقة القولين في توجيه تخريج الإمام الشافعي للغزالي، (ص: 64 – 65)
7. مجموع فتاوى ابن تيمية : (29 / 439).
8. إعلام الموقعين لابن القيم : (5 / 4)
9. الآداب الشرعية؛ ابن مفلح : (2 / 224).

لنحمل معهم أوجاعهم

أ. فادية أبو عيشة
ماجستير فقه وتشريع

إنها النصف الأخر لجراحنا، لألمنا الممتد عبر عقود، إنها تجربة النصر الوحيدة، جدارنا الذي أسندنا إليه ظهورنا كل ما أمعن الظلم في ذبحنا، غزة التي استجرنا بها مرارا، كيف لا نشاطرها اليوم عذاباتها؟ كيف نغرف من الحياة ومتاعها ما استطعنا عابرين على جسور الجثث والقصص والأسماء المجهولة فيها؟

أبناء هذه البلاد، نحن أنين غزة إن توجعت، ودموع بناتها إن بكين، وجوع أطفالها إذا جاعوا، كيف مضينا في هذه الدنيا متجاوزين كل التفاصيل نغطي أعيننا بحجة الاستمرار وضرورة المضي، وهل تستمر الحياة بأن تقفز عن دمائهم؟ كم أعطيتهم من وقتك؟ كم مرة دعوت لهم؟ كم مرة سعيت لهم؟ وكم مرة شرحت أوجاعهم، إنهم نحن، فإن كان لا بد للحياة من أن تستمر، فليكن ذلك باستحضار جراحهم.

أبناء هذه البلاد ، تهذبوا في الفرح ما استطعتم، تهذبوا أمام الموت والدموع، أمام الفقد والتشريد، خبئوا سعادتكم عن العيون الباكية، كللوا ابتساماتكم بالدعاء لهم والصدقة عن أرواح شهدائهم، إنهم نحن، تفصلنا عنهم المسافات الممتلئة بالخوف والعجز والخذلان، فلا يبقى لهم منا سوا الدعاء والتوجع عليهم والوقوف أمام جراحهم ، لا تبخلوا ، حتى وإن اعتدتم صوت آهاتهم، لا تقطعوا صوت دعواتكم ،لا تتركوا ميدانهم ما استطعتم، لعلهم الضوء الذي تبقى لأمتنا في آخر هذه الطريق، فغزة الحبيبة، هي أيقونة الصمود والتحدي، وقلوبنا تعتصر حزنًا وألمًا ونحن نرى ما تعانيه وأهلها من ويلات، فكم من دمعة سالت، وكم من قلب حزين، وكم من حلم تبخر تحت وطأة هذا الواقع المرير. فلنكن لهم هونا وسندا، ولنسعَ دوما لقضاء حوائجهم، والتخفيف عنهم، ورحم الله الشاعر إذ يقول:

اقض الحوائج ما استطعت ... وكن لهم أخيك فـــارج
فلخـــيـــر أيام الفـــتى ... يوم قضى فيه الحوائج

أما أنتم يا أهل غزة الأبطال، أنتم في قلوبنا وفي صلواتنا دائمًا، صمودكم الأسطوري يلهمنا جميعًا، وتضحياتكم لن تذهب سدى. إنكم تجسدون معنى الإيمان والإصرار على الحياة، رغم كل الظروف القاسية.

مساعدتكم واجب إنساني وديني. فكيف لنا أن نغفل عن آلام إخواننا، ونحن نملك القليل من أجل أن نساعدهم؟ إن كل قطرة ماء، وكل لقمة طعام، وكل كلمة دعم، هي شمعة تضيء دروبهم المظلمة.

دعونا نتكاتف جميعًا لنقف بجانب أهل غزة، ولنقدم لهم كل ما نستطيع من مساعدات. فالعطاء لا يقتصر على المال، بل يشمل أيضًا الدعاء، والتضامن، ونشر الوعي بقضيتهم العادلة.

حديث النبي ﷺ :(أول هذا الأمر نبوة ورحمة، ...)

قراءة استراتيجية

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أول هذا الأمر نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكاً ورحمة، ثم يكون إمارة ورحمة، ثم يتكادمون عليه تكادم الحُمُر؛ فعليكم بالجهاد، وإنّ أفضل جهادكم الرباط، وإنّ أفضل رباطكم عسقلان) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

إن هذا الحديث من دلائل نبوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، لأنه أخبر فيه عن أمور غيبية لم تكن وقعت، بل ولا يمكن توقعها بهذا الترتيب الذي ورد في الحديث، فقد بيّن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المراحل التي ستمر بها الدعوة الإسلامية خلال مسيرتها، منذ نزول رسالة النبوّة على الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى وقتنا الحاضر، وقد تتابعت هذه المراحل – عموماً - كما أخبر عنها النبي - صلى الله عليه وسلم - بالترتيب الذي ورد في الحديث، فانتقلت من مرحلة النبوة، إلى الخلافة الراشدة، إلى النظام الملكي في دولة إسلامية واحدة جامعة، ثم تشرذمت الأمة الإسلامية إلى إمارات متفرقة، ولكنّ هذه المراحل السابقة مع ذلك كان فيها رحمة للأمة، لأن المرجعية فيها – عموماً - كانت للشريعة الإسلامية، ثم انتقلت الأمة الإسلامية – بعد ذلك - إلى مرحلة الضعف والوهن، فزاد تشرذم الأمة إلى دويلات وإمارات، باختلاف مسمياتها، وأبعدت فيها الشريعة الإسلامية عن القيادة والتوجيه إلا في جوانب ضيقة كالأحوال الشخصية، وصار ولاء هذه الدويلات عموماً إلى أعداء الإسلام.

إنّ هذا الحديث يكشف لنا أن الأمة الإسلامية تعيش اليوم في مرحلة تكادم الحُمُر على هذا الدّين، وعلى من يحمون رايته ويرفعون لواءه، وهذا الوصف من النبي - صلى الله عليه وسلم- له دلالات:

فتكادم الحمر معناه: من الكدم: "والكدم هو تمشمش العظم وتعرقه، والتمشمش هو كسر العظم وسحب ما فيه من المخ، وتعرّق العظم هو أكل ما عليه من اللحم نهشاً بالأسنان، وكذلك أثر الضرب بحديدة، والقبض على الشيء وعضّه، وتكادم الحُمُر: العضّ بأدنى الفم حتى ينكسر المعضوض، والرجل المُكدّم هو الذي لقي قتالاً شديداً فأثرت فيه الجراح" لسان العرب، 509/12، ومن هذه المعاني نستخلص أن تكادم الحُمُر - في الحديث - يحمل صورتين: الصورة الأولى وهي الإيذاء والإيلام الشديدين مع الجراح والكلوم والإصابات، والصورة الثانية هي الأكل من جسد هذه الأمة، بسلب خيراتها ومقدراتها واغتصاب أرضها، كما بيّن ذلك النبي – صلى الله عليه وسلم – في حديث آخر، حيث قال: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين على من ناوأهم، وهم كالإناء بين الأكلة حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، قلنا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: بأكناف بيت المقدس) رواه الطبراني، والحديث حسن بشواهده كما في موسوعة بيت المقدس وبلاد الشام، وكما في الحديث الآخر: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة على قصعتها، قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، تنتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن، قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: حب الحياة، وكراهية الموت) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني، فهذه الأحاديث تبرز لنا صورة الواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية، وهجمة الأعداء العنيفة على هذا الدين وحملته ممن يرفعون لواءه بحق، ويرفضون أن يكونوا فريسة سهلة، كالقصعة بين الأكلة، كلهم يريد أخذ ما فيها من خير، حتى يكسروا شوكة هذا الدين، ويستنزفون خيرات أمته، وينهشون ما فيه من عناصر

القوة والمنعة، ليصبح تدّين أهله ضعيفاً لا يقوى على الدفاع عن حياض الدين، ولا حماية بيضته وأرضه.

إنّ النبي – صلى الله عليه وسلم – يبيّن للمسلمين الواجب المنوط بهم في هذه المرحلة خاصة - مرحلة تكادم الحُمُر – وهو رفع راية الجهاد، وعدم الانشغال عنها بأي أمر آخر، فلا يمكن في هذه المرحلة صدّ المتكادمين إلا بالجهاد، فانشغال المسلمين في هذه المرحلة بالجوانب المادية الدنيوية في الاقتصاد والسياسة والعلوم وغيرها لن يحمي الأمة إذا تركت الجهاد، وستكون أرضها وخيراتها منهوشة ومأكولة، بل إنه صلى الله عليه وسلم – يرشدنا إلى أن يكون الجهاد في سبيل الله - تعالى - قبل كل شيء، (فعليكم بالجهاد)، وإن الذي مكّن المتكادمين من رقبة هذه الأمة ونهش عظامها هو انشغالها عن الجهاد بأمور الدنيا.

وبما أن الأمة اليوم متشرذمة، وقواها مشتتة، وطاقاتها مستنزفة ضائعة في العموم، فإن المطلوب ممن يحملون لواء هذا الدين، ويرفعون راية الجهاد في سبيل الله – تعالى – أن يثبتوا على أرضهم يدافعون عنها ويحمون ثغورها قدر استطاعتهم، حتى لو أدى ذلك إلى ارتقاء الشهداء وبتر الأعضاء وسفك الدماء وكثرة الجراح والآلام، وتدمير كل مناحي الحياة الإنسانية، فهذا الثبات والصمود على الأرض، وعدم التفريط فيها، وعدم السماح للمتكادمين من الاستيلاء عليها وتفريغها من أهلها، هو أعلى منازل الجهاد في هذه المرحلة، (وإن أفضل جهادكم الرباط).

وإذا كانت أكناف بيت المقدس، وجوهرتها فلسطين، وفي القلب منها غزة، هذه البقعة الصغيرة المباركة من الأرض، هي التي ما زالت ترفع راية الجهاد، وتقف على رأس من يحملون لواءه، في وجه قوى التكادم والاستكبار العالمي على هذا الدين، رغم المناوأة واللأواء من الأعداء، والمخالفة والخذلان من الأقرباء، بدلالة قوله – صلى الله عليه وسلم -: (لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس) رواه أحمد والطبراني، وقال الهيثمي عن رواية الطبراني: رجاله ثقات، فإن النبي – صلى الله عليه وسلم – يرشدنا إلى أفضل مراحل الارتقاء في مواجهة المتكادمين، ابتداء من مرحلة الجهاد، الدائرة الأوسع للمواجهة، ثم دائرة التفضيل الأضيق، وهي الرباط والثبات وحماية الأرض، ثم الدائرة الأضيق، وهذه دائرة الاصطفاء والتكريم، التي يمنّ الله - تعالى - بها على من يشاء من عباده، وهي الرباط في غزة (وإن أفضل رباطكم عسقلان)، وهذا التفضيل الرباني للمجاهدين والمرابطين على ثغر فلسطين عامة، وغزة خاصة، والذي أخبرنا به النّبي – صلى الله عليه وسلم – له أسبابه، التي يمكن استقراء بعضها:

أ- إنها طائفة لا تزال وستبقى متمسكة بالدين والحق، فلم تنحرف عن دينها وعقيدتها، ولم تتنازل عن حقوقها.

ب- إنها الثغر الأخير، والسد المنيع الذي يقف في وجه مخططات أعداء الإسلام من المتكادمين والمتآمرين، ومن يقف خلفهم من قوى الظلم والبغي العالمي.

ت- إنها الطائفة الباقية - كجماعة وليس كأفراد - التي لم تركن إلى الدنيا، وما زالت تعدّ وتخطط وتعمل وتجاهد وتقتحم، فلم تركن ولم تخضع ولم تسالم.

ث- إنها الطائفة التي دفعت وما زالت تدفع من قادتها وأبنائها وأهلها ودمائها وبيوتها وأموالها وحياتها وراحتها، ثمناً باهظاً من أجل دينها ومقدساتها وأرضها، وعزة هذه الأمة وكرامتها.

ج- إن هذه الفئة المؤمنة هي التي ستكون على يديها– إن شاء الله - نهاية مرحلة التكادم، ويتحقق بجهادها وتضحياتها وعد الآخرة؛ بإساءة وجوه المحتلين، وتتبير جهود المتآمرين وعلوهم وغطرستهم.

مجالس النّبي ﷺ المقدسية

د. زهران عمر زهـران
دكتوراة في التفسير

تناقلت كتب السنّة الحديث عن عشرات المجالس المقدسية، التي عقدها النّبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه، في فترة دعوته المكية والمدنية، فمثلاً حادثة الإسراء والمعراج وحدها نُقلت عن أكثر من ثلاثين من أصحاب النبي عليه السلام.، فالحديث عن فضل هذه الأرض وبركتها وقدسيتها لازم النّبي صلى الله عليه وسلم في كلّ حياته.

لم يستطع النّبي صلى الله عليه وسلم أنْ يبقي هذه المشاعر الجياشة حبيسة قلبه، وأن يعتزل الحديث عن تلك الأرض المقدسة المحتلة في زمانه، فحدّث عنها بكل قوة.

فالنّبي صلى الله عليه وسلم أحبّ الأرض المباركة –فلسطين- أحبّها وتعلق بها تعلقاً ظاهراً، فكان حديثه عنها حديث محبّ ومشتاق ومستشعر لما يحلّ بها، والنّاظر في مجالس النّبي صلى الله عليه وسلم المقدسية يتعلم منها دروساً كثيرة، ففيها منهجية واضحة خطها النبي صلى الله عليه وسلم وأراد أنْ يغرسها في قلوب أصحابه رضوان الله عليهم، وقلوب أتباعه إلى قيام الساعة.

هذه المنهجية تنطلق من حبّ الأرض المباركة فحبّها عقيدة، فالأقصى آية في كتاب الله تعالى، وتمضي هذه المنهجية في نشر فضائلها في كل مكان وتحت كل الظروف، لتصل في نهاية الطريق إلى المحافظة عليها والدفاع عنها لتبقى شامخة عزيزة بعزّ الإسلام.

من المجالس المقدسية الماتعة التي عقدها النّبي صلى الله عليه وسلم ما نقله أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ... **اقرأ الحديث بهدوء!**

وقف أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، فسأل عَن الصَّلاةِ في بَيتِ المقدِسِ أفضلُ أو في مسجِدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ؟ فَقالَ صلى الله عليه وسلم: صلاةٌ في مسجدي هذا، أفضلُ من أربعِ صلواتٍ فيهِ، ولنِعْمَ المصلَّى هوَ أرضُ المَحشرِ والمنشَرِ، وليأتيَنَّ على النَّاسِ زمانٌ ولقَيْدُ سَوطٍ أو قال: قوسِ الرَّجلِ حَيثُ يرى مِنهُ بيتَ المقدسِ؛ خيرٌ لهُ أو أحبَّ إليه مِنَ الدُّنيا جميعًا".

أعد القراءة بهدوء مع التشكيل (وَلَنِعْمَ المُصَلى هُو) يا الله! كم تحمل هذه الكلمات النّبوية من الحبّ لتلك الأرض.

قبل أن نبتعد عن هذا الحديث أنظر في طرفه: (ولقَيْدُ سَوطٍ، أو قال: قوسِ الرَّجلِ حَيثُ يرى مِنهُ بيتَ المقدسِ؛ خيرٌ لهُ أو أحبَّ إليه مِنَ الدُّنيا جميعًا)، أي: إنّ موضع السوط الذي يُرى منه بيت المقدس أحبّ من الدنيا جميعاً، فهنيئا لكم يا من قدّر الله تعالى لكم شرف الجوار لتلك الأرض المباركة والرباط فيها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لم يكتف النّبي صلى الله عليه وسلم وهو يخط منهجية لأصحابه وأتباعه فقط بالحديث عن شوقه لتلك الأرض وحبّه لها وبيان فضلها بل تحرك باتجاهها وحرّك أصحابه، فها هو صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك في غزوة العسرة (سنة: 9ه) التي كانت باتجاه الشام، يجلس مع أصحابه يحدثهم ويناقشهم كما هي عادته، لكن هنا في هذا المجلس كان يحدثهم وهو يتنسم العبير القادم من تلك الأرض المباركة، تلك النسائم التي تحمل في ثناياها البشائر بالفتح القريب، فيعُدّ لأصحابه ستاً بين يدي الساعة كما عند الإمام البخاري في صحيحه من حديث مالك بن عوف رضي الله عنه، ويقول: "مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ المَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِئَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ العَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا".

ويختم النّبي عليه السلام حياته بعظيم الوصايا والأعمال، منها قوله لأصحابه: أنفذوا بعث أسامة، أنفذوا بعث أسامة ... كلمات دوى صداها في قلوب الصادقين من الصحابة الكرام الميامين تكللت بفتح البيت المقدس في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فحبّ هذه الأرض المقدسة، والحديث عن فضائلها تحت كل الظروف وكلما كانت الظروف أشد كان واجب الحديث أعظم، والدفاع عنها هي خريطة الطريق التي رسمها النّبي صلى الله عليه وسلم من خلال مجالس المقدسية.

فقه المقاومة الشعبية
بين جهاد الطلب وجهاد الدفع

د. يونس أكرم الجعبري
محاضر في كلية الشريعة في جامعة إسطنبول

تأسست النظرية الفقهية في فقه الجهاد على تقسيم القتال في سبيل الله تعالى إلى قسمين رئيسين، هما: جهاد الطلب الذي نطلب فيه العدو في أرضه، وجهاد الدفع وهو الذي نتصدى فيه للعدو المهاجم لأرض المسلمين، وبنى الفقهاء بناء على ذلك عامة المسائل الفقهية المرتبطة بهذه الفريضة العظيمة، ألا وهي الجهاد في سبيل الله تعالى. والسؤال المطروح هنا حول الفقه الملائم لحالة المقاومة الشعبية التي يخضوها أبطال هذه الأمة في بيت المقدس عموما وفي غزة خصوصا، مع الأخذ بعين الاعتبار التضحيات الهائلة في الأرواح والممتلكات في ظل هذا العدوان الذي طال أمده وعظمت خسائره.

إن المتأمل في حالة المقاومة الشعبية يجد أنها قطعا تنتمي إلى فقه جهاد الدفع، فالمعيار الأساسي الذي فرق به الفقهاء بين هذين النوعين من الجهاد هو وجود العدو في أرض المسلمين أو خارجها، وبناء على ذلك فإن المقاومة الشعبية داخلة في جهاد الدفع، الذي نص العلماء على جملة من أحكامها على يجمع أكثرها قولنا: إن جهاد الدفع المتمثل في دفع العدو لا تشترط فيه الشروط الكثيرة الموجودة في جهاد الطلب، وعلى رأسها القوة المكافئة للعدو؛ لأن هذه القوة في جهاد الطلب معقولة المعنى؛ فهذا النوع من الجهاد يريد تحصيل منافع للمسلمين بفتح بلاد جديدة لهم، ولا شك أن محاولة تحصيلها مع عدم الاستطاعة بفقد القوة على ذلك سيؤدي إلى ضرر للمسلمين بتعريض أنفسهم للموت، أما جهاد الدفع فإنه لم يُشترط فيه هذا الشرط؛ لأن الضرر حاصل والجهاد يدفعه، وترك القتال سيزيد من قوة العدو وقدرته على أذية المسلمين.

المقاومة الشعبية اليوم تؤدي فريضة جهاد الدفع بلا إمام مسلم ولا دولة إسلامية يلوذون إليها أو يحتمون بها؛ فالمقاومة الشعبية ليس لها من تلوذ إليه إلا شعبها، بل هي في حقيقتها مقاومة من الشعوب لا من الجيوش النظامية، فاسمها دال على حقيقتها وطبيعتها، وعليه فإن ما يقال حول احتماء المقاومين بالأهالي والسكان هو أمر يدل على أن قائله لا يفهم طبيعة هذه المقاومة، فهؤلاء أصلا ليسوا جيوشا نظامية لنلزمهم بالوجود في معسكراتهم، وهذا جهاد دفع لا جهاد طلب، فهو جهاد من أرض المسلمين، مما يعني تعرضهم للخسائر في الأرواح والممتلكات لا بسبب الجهاد ولكن بسبب نزول العدو في أرض المسلمين.

الشرع طلب من المؤمن الذي دخل العدو أرضه أن يقاتله، وهذا النوع من القتال أثمانه باهظة، وتكلفته مرتفعة، ولا يمنع ذلك المؤمن عن القيام بواجبه، وإن كان يستطيع أن يتحرى تجنيب غير المقاتلين من النساء والأطفال وكبار السن أخطار ذلك فيجب عليه ذلك، أما أن يكون مقابل ذلك أن يترك الجهاد الواجب عليه، فلم يقل أحد بهذا.

ثم إن المقاومة الشعبية تمارس أحيانا بعض خطط جهاد الطلب ظاهريا، بإغارتها على معسكرات العدو ومدنه التي أقامها على أرضنا المحتلة، وبالتالي يتوهم البعض أن هذا أخرجها عن كونها جهاد دفع، وهذا لا يصح، فالمعيار الفقهي واضح بالتمييز بين هذا وذلك لا بالخطط العسكرية أو ظواهر الأمور، بل بوجود العدو في أرضنا من عدم ذلك.

ومن جهة أخرى، فقد نص الفقهاء على أن جهاد الطلب فرض كفاية، أما جهاد الدفع فهو فرض عين على الجميع بما يستطيعون، وعدم القيام بهذا الواجب هو سبب ضعفنا وكثرة الموت فينا، لأننا بذلك نخالف الأمر النبوي، حيث قال صلى الله عليه وسلم: ".. ثم يتكادمون عليه تكادم الحمر، فعليكم بالجهاد"، لذلك فإن المقاومة الشعبية ليست هي المسؤولة عن هذا العدد الضخم من الضحايا، لأنها تقوم بواجبها الشرعي، ولكن سبب هذه الخسائر العظيمة هو ترك الأمة لهذا الواجب، وخصوصا أن جل أهل فلسطين على خير ما هم فيه من رباط إلا أنّهم مقصرون في واجب الجهاد، عدا عن تقصير الأمة كلّها وخصوصا بلاد الطوق حول بيت المقدس.

خلاصة القوم، إن المقاومة الشعبية هي المظهر المعاصر لجهاد الدفع، فهي واجبة وجوبا عينيا، والواجب على الجميع الالتحاق بها، والتخلف عنها مآلاته أسوأ من أثمانها وتضحياتها، ووجودها بين الناس هو جزء من قدرتها على المناورة وحماية نفسها لطبيعة هذا النوع من القتال، فمن يطلب جهاد دفع ومقاومة شعبية بلا تكاليف، كمن يطلب حجّا بلا تعب، وصلاة بلا قيام، وصوما بلا جوع، والقاعدة الفقهية أن المشقة المعتادة لا تسقط التكليف.

وعد الله الحق

د. مـــروان بحيـــص
دكتوراه في الفقه وأصوله

قال الله عزل وجل: (وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) (النساء:122)

الحمد والثناء لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم أما بعد:

ونحن نعيش في ظروف صعبة بلغ فيها الطغيان مداه، وزاد الظلم على الأبرياء حتى ضعف اليقين على وعد الله بالنصر عند بعض الناس... فكان السؤال الأهم: هل سيتحقق وعد الله؟ والجواب: حتماً سيتحقق وعد الله، وهذا يقين المؤمنين الصادقين بأن الله سيصدق وعده وسيعز جنده... ففي آيات كثيرة يقول الحق عزل وجل فيها عن وعده (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ). [الذاريات:5]،وفي آية أخرى (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ). [المرسلات:7] وبما أن الله عزل وجل وعد عباده فحتماً سيتحقق الوعد.. لكن متى؟ وكيف؟ هذا ليس من شأن العبيد بل يتعلق بعلم الله عزل وجل وحكمته وقدرته وتدبيره، وعلى أهل الإيمان في اللحظات الصعبة التسليم بقضاء الله عزل وجل، وأن يبقوا على العهد والوعد ما استطاعوا، وألا يحيدوا عن طريق الحق والرشاد.

فبتسليمهم بقضاء الله عزل وجل وبإيمانهم بحكمته فـ(إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ). [الأعراف: 56]، لذلك قال الله في آية أخرى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا). [النور:55] فالاستخلاف والتمكين يأتي بعد البذل والصمود على طريق الاستقامة، والإيمان والأعمال الصالحة وترك الشرك هي مؤهلات تجعل عباد الله من أهل الاستحقاق لوعد الله عزل وجل.

وفي آية أخرى سلوى للقلوب التائهة والعقول الحائرة مما يجري من أحداث جسيمة لم يسجل مثلها التاريخ المعاصر، وهي قوله : (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ). [غافر:51]، فإن الله يخبرنا أن النصر نصران:

النصر الأول: في الحياة الدنيا كنصر الله عزل وجل لنبيه إبراهيم عليه السلام ولنبيه موسى عليه السلام ولنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولكثير من الأنبياء والخلفاء والأصفياء، وهذا نصر بذلوا أسبابه الإيمانية والمادية فأنجز الله عزل وجل وعده لهم في الدنيا.

أما النصر الثاني: فقد يبذل الإنسان المؤمن أسبابه الإيمانية والمادية، ولكن لا يتحقق النصر له في الدنيا، وذلك لغاية وحكمة استأثر الله بعلمها عنده فيكون قد ادخر لهم أجرهم يوم يقوم الأشهاد. فمثلاً أصحاب الأخدود طغوا في البلاد وزعم ملكهم أنه إله من دون الله وأنه الفعال في الكون، فلما انكسر أمام إيمان الفتى وأسلم الناس لرب العالمين، حفر لهم الأخاديد وأوقد لهم النار؛ فلم يكن لأهل الإيمان خيار أمام هذا الملك الطاغية إلا أن يُلقوا بأنفسهم في النار في الوقت الذي انقطع النصير والظهير، فبذلك يكون نصرهم يوم يقوم الأشهاد.

وكذلك نبي الله عزل وجل يحيى عليه السلام الذي قتله ذلك الملك الظالم ظلماً سيكون نصره يوم يقوم الأشهاد.

وفي قصة ماشطة ابنة فرعون التي لم تُسلّم إيمانها لأكبر طاغية عرفه التاريخ (فرعون)، بل سلمت أمرها لربها واستسلمت لحكمه، فما كان من ذاك الطاغية إلا أن صنع لها عجلاً جسداً من نحاس وأشعل تحته النار حتى أصبح جمراً حارقاً، فألقى صغارها واحداً تلو الآخر فلم تجزع ولم تسلم وهي تقول: "الله ربي وربكم" حتى ألقاها هي وصغيرها... فسيكون نصرها وأولادها يوم يقوم الأشهاد، وما حدث لآل ياسر والدعوة في بدايتها وأهل الإيمان قلة مستضعفة في الأرض، رغم أن النبي عليه السلام بين أظهرهم لكنه وعدهم بالجنة قائلاً: "صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة"... فسيكون نصرهم يوم يقوم الأشهاد.

فكان انتصار للحم والدم والأشلاء على ظلم وقهر الأعداء، فما يجدون عند شهادتهم من مس الموت إلا كما يجد الإنسان مس القرصة، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا دليل كرامة للشهداء عند ربهم عزل وجل، فلا تجزع لما يحدث من ظلم وقهر وقتل ودمار للصغار والكبار والنساء فإن وعد الله حق، ومن أوفى بعهده من الله؟!

فهم ممن يكون نصرهم يوم يقوم الأشهاد والله لن يترهم أعمالهم، فهم في ضيافة الملك الذي لا تضيع عنده الحقوق وإن لم يتحقق العدل في محاكم الدنيا فحتماً سيتحقق في محكمة قاضيها ملك الملوك عزل وجل، التي شعارها: (لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ). [غافر: 17].

في ظلال آيات من سورة الإسراء
(بـــر الوالديـــن)

د. إبراهيم فضل الشيخ
محاضر جامعي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين محمد صل الله عليه وسلم؛

إن الآباء والأمهات هم سر وجود الأبناء، وهم يبذلون كل ما يستطيعون لكي يكون أبناؤهم أفضل الناس، وكما يقال: "لا أحد يحب أن يعلو عليه أحد كما يريد الوالدان"، ولذلك نرى أن هذا الموضوع أتى في ترتيبه وأهميته في شريعتنا الغراء مرتبطا في مرات عديدة بالتوحيد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾، قال القرطبي: "وقرن الله في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد، لأن النشأة الأولى من عند الله، والنشء الثاني- وهو التربية- من جهة الوالدين، ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره"[1] وجعله سببًا لدخول الجنة أو النار، لا بل سببا قاطعا في غضب الله؛ فرضا اللهِ في رِضا الوالدَيْنِ، أي: إرضاءُ الوالديْنِ سَبيلٌ لرضا اللهِ ؛ فيَعْفو ويَغْفِرُ له؛ وذلك بالإحْسانِ إليهما، والقيامِ بِخِدْمَتِهما، وتَرْكِ عُقُوقِهما، حتى يَرْضَيا عن ابنِهما، شَريطةَ أنْ تكونَ الطاعةُ التي يتحصَّلُ بها الابنُ على رِضا الوالدَيْنِ فيما يُرْضي اللهَ لا فيما يُسخِطُه؛ وهذا الإرضاء-في حقيقته- عبادة؛ لأنّه لا طاعةَ لمَخْلوقٍ في مَعْصيَةِ الخالِقِ؛ قال تعالى: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}، وسَخَطُ اللهِ في سَخَطِ الوالدَيْنِ، وحقُّ الوالدَيْنِ يأتي بعدَ حَقِّ اللهِ عَزَّ وجَلَّ؛ كما قال تعالى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}، وشكر الوالدين يكون ببرّهما على تربيتهما، ورعايتهما للأولاد حال صغرهم[2]، ومن الشكر أيضًا النفقة عليهما حال حاجتهما، وذكر الكاساني أنّ قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ يدل على وجوب قضاء حوائج الوالدين، وإدرار النفقة عليهما حال عجزهما وحاجتهما، لأنّه من باب شكر النعمة فكان واجبًا[3].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ عليه السلام، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: "الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ"، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:" ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ"[4]، فعقوق الوالدين معدود من أكبر الكبائر في هذا الحديث، ولا شك في عظم مفسدته لعظم حق الوالدين إلا أن ضبط الواجب من الطاعة لهما والمحرم من العقوق لهما فيه عسر، ورتب العقـــوق مختلفة[5]،منها المنع من إظهار الضجر بالقليل والكثير عسر، ورتب العقوق مختلفة، منها المنع من إظهار الضجر بالقليل والكثير، والمراد من قوله: ولا تنهرهما، المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليها، أما قوله: "وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً" أي: حسنًا جميلًا لينًا، فهذه الآية من باب الاستدلال بالملزوم على اللازم والأدنى على الأعلى، فالتأفيف أقل شيء يعق به، والمراد من ذلك المنع من إظهار الضجر القليل، والكثير، فالمنع من التأفيف يدل على المنع من النهر بطريق الأولى.

ومن برّ الوالدين النفقة على الوالدين، والقيام على حاجتهما، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (يدُ المُعطِي العُليَا ، وابدَأْ بِمَن تعُولُ : أمَّكَ وأبَاكَ ، وأختَكَ وأخَاكَ، ثُم أدنَاكَ أدنَاكَ)[6]، ففي هذا الحديث توجيه إلى حقّ الوالدين في تقديم العون لهما عند حاجتهما، واليد العليا هي المنفقة والوالدين خير من يبدأ المرء بإعالتهما والإنفاق عليهما[7]، وقال رَسُولُ اللَّهِ: « إِنَّ مِنْ أَطْيَبِ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَوَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ »[8].

فيا عجبي من يتلذذ بالنعم وأبواه يعيشان كفاف الحياة، ولا يجدان ما يكفيهما، أو ينامان وهما يفكران في حوائجهما، وثمن أدويتهما، (وفواتير) الكهرباء والماء، ويا عجبي كيف لابن كان أبوه يعاني من حر الصيف، وبرد الشتاء، ويبس الخريف، وأمّ تعمل ليلًا نهارًا على خدمة ابنها، تسهر في مرضه، تأتي له بالطعام والشراب في دراستهم، وربما ساعدته فيها، وغفت وهي جالسة لينهي امتحانه، وآثارا ابنهما على نفسيهما في ملبسهما، وطعامهما، وراحتهما، فلما اشتد عوده رماهما، أو منن عليهما بوقته، وماله، وزيارته.

إنّ عقوق الوالدين والبرّ بهما لا يقتصر على حياتهما، بل يُمكن أن يكون بعد مماتهما أيضًا؛ فعلى المرء أن يحرص على الدعاء لهما بالخير والرحمة بعد وفاتهما، وأن يتصدق عنهما، ويصل رحمهما، ويقضي عنهما دينهما، وهذا كلّه برّ بهما، وفي المقابل من الممكن أن يفعل عكس ذلك بعد وفاتهما ويكون بذلك عاقًا لهما، لذا فإنّ البر والعقوق وجهان مختلفان في حياة الأبناء، فاحرصوا على أن تكون من فئة الأبناء البارّين الذين يسعون إلى رضا الله تعالى وكسب الدنيا والآخرة، وينعمون بالرزق والبركة في حياتهم، واحذروا كلّ الحذر من عقوق الوالدين فعاقبته وخيمة، ولا يوجد في الحياة أجمل من رضا الله ورضا الوالدين.

(1) القرطبي، تفسير القرطبي، 12/2
(2) الطبري، جامع البيان ، (138/20)
(3) الكاساني، بدائع الصنائع، 30/4
(4) صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين
(1) ابن دقيق العيد، إحكام الأحكام، (ص:274)
(2) الترمذي، سنن النسائي الكبرى، (2311)، 33/2
(3) الشوكاني، نيل الأوطار 84/7
(4) أبو داود، سنن، ص: 312/3 (3530)

مفهوم القوامة
بين الأحكام الشرعية والقوانين الوضعية

د. منال قـــزاز
باحثة دكتوراه في المعهد العالي لأصول الدين

ظهرت في الآونة الأخيرة الكثير من الدّعوات والمناشدات والمحاولات الّتي يقصد منها تغريب معنى القوامة بحرفه عن مقصود الشّريعة الإسلاميّة منه، وإظهاره على أنّه ظلم وإجحاف في حقّ المرأة والأسرة، بعدم مساواتهما في بعض الأمور الّتي راعى فيها الشّرع الإسلاميُّ الفوارق والاختلاف بين المرأة والرّجل في الخصائص والبنية والتّكوين.

وقد خلق الله – سبحانه- الرّجل والمرأة وكرّمهما ورفع شأنهما بين الخلائق، وربط بينهما بروابط مختلفة كرابطة الدّمّ والقرابة، ورابطة النّسب والمصاهرة، وساوى بينهما في أصل الخلقة والتّكوين، وساوى بينهما في العمل والجزاء والأجر والمثوبة، وساوى بينهما في الإنسانيّة، وجعل النّساء شقائق الرّجال.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاس اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾.

ولم تكن يومًا إشكاليّة فيمن يحكم الآخر، ولا من يسيطر على الآخر ويلغيه، وحين خلق الله الرّجل وجعل له القوامة، كانت المرأة إحدى مسؤوليّاته لا إحدى ممتلكاته، وحين خلق الله المرأة لتحيا في كنف الرّجل، جعل الرّجل يستعذب حاجة المرأة ولجوئها إليه، لجوء أنثى فطرت عليه دون أن تشعر بامتهان أو انكسار.

وكانت الأسرة وما زالت المحضن الآمن للمجتمعات الإنسانيّة، فكان ربُّ الأسرة هو مصدر الأمن والأمان، والمنفق والمعيل، والسّند الحامي من تقلّبات الحياة، أمّا المرأة فتمثّل نصف المجتمع الإنسانيّ أو تزيد، وهي من تنجب النّصف الآخر وتهيّئه للحياة من خلال التّربية والتّأسيس والمراقبة والإعداد والإرشاد والتّلقين، إلى غير ذلك من وسائل التّربية الّتي تستخدمها الأمُّ في إنشاء أولادها وإعدادهم للحياة، فتكون لهم الأمّ الحانية، والمربّية الصّالحة، والمثل والقدوة، حتّى يشبّوا على حبّ الله وطاعته، بالتزام أوامره واجتناب نواهيه، فكان في معنى القوامة تشريف للمرأة وتكليف للرجل.

لذلك كانت الأسرة أولى الأهداف لكلّ من أراد أن يفسد في الأرض، فإذا نجحوا في إفسادها كان إفساد ما دونها أسرع وأسهل؛ لذلك وضع أعداء الإسلام الخطط والمكائد لزعزعتها وتفكيكها، بإثارة الجدل والتّشكيك في كثير من الأحكام الشّرعيّة المتعلّقة بالأسرة.

فلم تكن قوامة الرّجل وحدها الّتي شنُّوا عليها الحرب، بل حاربوا فكرة القرار في البيت، والسُّلطة الأبويّة، والوصاية والولاية، وطالبـــوا بتحرُّر المرأة من مسؤوليّات بيتها وأولادها، فأصبحـــت المرأة تسير من تخبُّط إلى تخبُّط، ومكانتها تهبط من انحدار إلى انحدار، فأخرجوها من قوامة الرّجل باسم الحرّيّة، فلم تحصل إلّا على الامتهان والإذلال.

ويضاف إلى ذلك المطالبة بحرّيّة تصرُّف المرأة في جسدها، وما تحويه هذه العبارة من لؤم وخبث، من إباحة للزّنا والشُّذوذ، وإباحة للسُّفور والتّعرّي، وإباحة للإجهاض، وإباحة للزّواج من غير المسلمين، وإباحة للسّفر وإلغاء المحرم، وإباحة لإلغاء العدّة الشّرعيّة، وإباحة للعمل مهما كانت مشروعيّته أو عدمها، وغير ذلك من المخالفات الّتي تناقض الشّرع والعرف والفطرة السّويّة، وتهدم مؤسّسة الزّواج برمتها.

وعندما طالبوا النّساء بالتّحرُّر من مسؤوليّة الرّجال، هم في الواقع قيدوهنّ وحرّروا أنفسهم من المسؤوليّة تجاههنّ، فالواجب على المرأة أن تتّبع فطرتها، وتقاتل لأجل أنوثتها، ولا تنخدع بالحرّيّة والمساواة والاستقلال؛ لأنّ الأنوثة ليست قيدًا، إنّما هي عزّة وكرامة وحرّيّة.

وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن هذه الدعوات والقوانين لا تُطبق إلا لمصالح واضعيها، فإذا تعارضت هذه القوانين مع مصالحهم وسياساتهم فإنها لا تطبق، والدليل على ذلك ما يحدُث في أرض الرباط من تقتيل لعشرات الآلاف من النساء والأطفال وتدمير البيوت فوق رؤوسهم ولم يحركوا ساكنا حيالَ ذلك ولم يرمش لهم جفن، ولم نعد نرى تلك المظاهرات المُنادية بحرية المرأة وحمايتها من العنف الواقع عليها، بل على العكس من ذلك تخلت عنها تلك الجمعيات الممولة من الغرب من بداية المعركة وتركت النساء لمواجهة مصيرهن وحدهُن، فأين حقوق المرأة التي تتشدق بها الجمعيات النسوية؟ أين سيداو والإصرار على تطبيقها في فلسطين؟ هل كان العنف الواقع على المرأة من الرجل أكبر من العنف الواقع بسبب الحرب؟ أم أن هذه القوانين فقط لتدمير الأسرة وتخريب البيوت وإفساد المجتمع برمته؟

والمرأة المسلمة الّتي تنتمي للدّين الحقّ، وتأخذ بجوهره النّفيس، لا يضرُّها تآمر المتآمرين، ولا كيد الكائدين، وما كان لهذه القوانين الخادعة بصورتها الحاليّة أن تجد آذانًا صاغية، أو أن تطبّق في ديار المسلمين، في عصر منعة الإسلام وقوّته، فكانت نساء المسلمين آنذاك كالجبال الرّواسي في تطبيق شرع الله، واليقين بما عنده. يقول أبو الطّيّب المتنبّي:

لو أن النســـاءُ كمن فقدنا لفضلت النساءُ على الرجال
فلا التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخر للهلال

أخـــي

أ. حمدان مصلح
شاعر فلسطيني

أخي جاوز الظالمون المـــدى ... وعاثوا فساداً وحلّ الـردى
فهيّا فكفوا جيوش الظـلام ... وفكوا القيود ولبّوا النـــدا
أتَونا بجمعٍ يُبيد الحيـــاة ... ويبغي الإبادة إذ شـــرّدا
يدمّر بيتاً على أهلـــــه ... وينشر رعباً ولا منجـــدا
وشعبٌ يبادُ على مَسمـــعٍ ... ومرأى الجميع ولا مُرفِـدا
بلادُ العروبة قد خُـــدِّرَت ... وسيف الكفاح لهم أُغمِـدا
وشجبٌ ضعيف به أعلنـــوا ... بيان البطولة ما نـــددا
فمن للثكالى ومن لليتـامى ... ومن للبلاد يرد العـــدا
وشعب يجـ اهد يُرضي الإلهَ ... يصُدُّ العدوَّ بروح الفِـــدا
ويُنشِد لحناً جميلاً لنـــا ... يَحُثُّ الأبيَّ بما غـــرّدا
فكفّوا المخازيَ عن أمـــةٍ ... فلحنُ الجـ هاد لنا سُؤددا
لهيبُ المعارك عِزٌّ لنـــا ... بِحُب الشـ هادة نحيا غدا
سيبقى النضالُ لنا بلســمٌ ... بغير انتصارٍ فلن يَخمُـــدا